المحاضرة التاسعة

نظرية شبنغلر في فلسفة التاريخ

أولا: موجز سيرة شبنغلر:

ولد أوزوالد اشبنغلر في مدينة بلاكنبرج الالمانية عام 1880، انتقل مع عائلته إلى مدينة هاله واكمل دراسته الثانوية هناك، بداية تنقل بين جامعتي برلين ومنشن (ميونخ)، استقر بعدها على جامعة برلين وتخصص بالعلوم الطبيعية، عمل بعد تخرجه مدرسا للرياضيات، والاحياء كما اخذ حصص في التاريخ والجغرافية واللغة.وكان قارئا نهما تأثر بالفيلسوف الالماني فردريك نيتشه، وكثيرا ما وصف بالمتشائم، كونه يكره (العقل) ويرى ان (الحواس) هي التي تساوي الفرد بأفراد من النبلاء، كما كان لديه نظرة طبقية ورأى ان النبلاء يمثلون روح الامة والقوة الدافعة في التاري، على الرغم من وضعه المادي المتواضع، كما ان ذلك الوضع جعله يلتزم التدريس حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى عام 1914.

خلال سنوات الحرب وبسبب الظروف السياسية وحالة عدم الاستقرار عكف على كتابة مسودة محاضرات عن تدهور الغرب، واتم القسم الاول منه عام 1917، وقد وجد صعوبة كبيرة في طباعته بسبب وضعه المادي، كما ان دور النشر والطباعة رفضت نشره رفضا قاطعا، إلا ان مطبعة صغيرة غير معروفة طبعت المسودات بنحو ألف وخمسمائة نسخة، واكتمل طبعه عام 1918، وفي عام 1922 صدرت الطبعة المنقحة من الكتاب وبمجلدين.

كان كتاب شبنغلر يحمل عنوانا معبرا ومثيرا (**تدهور الغرب**)، ولم يلاحظه أحد لعدة اسابيع، ولم ينشر عنه خبر ثم بدأ فضول الناس بشأن هذا الكتاب الضخم التي تمضي أولى عباراته بالقول: **"يضم الكتاب لأول مرة محاولة لتقرير ما سيحدث في تاريخ المستقبل، محاولة لمتابعة مراحل لم تحدث بعد من مصير حضارة.."**، وبعدها لم تمضي عدة سنوات حتى بيع من الكتاب نحو مئة الف نسخة. ويبرر كثير من الباحثين اقبال الناس على شراءه هو ما وسم طبيعة كتابة شبنغلر من روح التشاؤم التي طبعت افكاره وما لذلك من رواج وتأثير على الناس في أوروبا ما بعد الحرب العالمية الاولى وما اعقبها من تطورات وتداعيات.

رأى أن الحضارات البشرية كائنات حية تنطبق عليها مواصفات الكائن الحي من وحدة عضوية ومراحل عمرية تبدأ مع الطفولة والشباب، ويتدهور في كهولة الحضارة وشيخوختها ثم موتها، كما تتميز الحضارة الحية بتبعية الأطراف للمركز، ويجد في الفنون والآداب والعمارة وحتى العلوم والأديان استجابة تلقائية لروح الحضارة.

عرض الكتاب أفكار شبنغلر وبنزعة موسوعية تتجاوز التأريخ وتتجه نحو فلسفة التاريخ، فشملت الفنون والآداب والعلوم والفلسفات في قراءة تسعى للتماسك النسقي والبلورَة النظرية. وشهدت أفكاره انتشاراً هائلاً في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، واتخذ الاشتراكيون القوميون من شبنغلر منظرا لافكارهم، غير انهم ما لبثوا ان نبذوه عام 1933 بسبب تشاؤمه بشأن مستقبل ألمانيا وأوروبا، ورفضه لتأييد الافكار النازية المتعلقة بالتفوق العرقي في كتابه (ساعة الحسم). توفي شبنغلر عام 1936، وانحسرت ما بعد الحرب العالمية الثانية ثم عاودت الظهور أواخر القرن العشرين.

نذكر من مؤلفاته:

-الاعوام الحاسمة.

- البناء الجديد للرايخ الالماني.

-الانسان والصناعة الفنية ..مساهمة في ايجاد فلسفة في الحياة.

ثانيا: نظرية شبنغلر في فلسفة التاريخ:

إن نظرية شبنغلر في الفلسفة هي فلسفة جبرية او اجبارية، إذ يعتقد أن التاريخ ليس إلا حضارات لا رابط بينها، ولا أسباب لقيامها، وإنما تخضع كل حضارة بمجرَّد قيامها لدورة حياة بيولوجية كأنها الكائن الحي، لها ربيع وصيف وخريف وشتاء، وأن شتاء الحضارة قد لا يعني اندثارها، وأن أُفول الحضارة قبل الأوان قد يكون بسبب ظروف خارجية تقضي عليها.
وان مهمة فلسفة التاريخ هي فهم البناء المورفولوجي[1] أو الشطر الخارجي للحضارة، أما جوهرها فهي خصائص جبرية واقعية تستند إلى مراحل حياة الحضارة، ومراحل حياة الحضارات واختصار هي:

1-مرحلة ربيع الحضارة (الطفولة): هي طور الفاعلية، إذ الحضارة في بداية حياتها لا تبالي بكل ما هو موجود، بل تحاول أن تثبت كيانها الخاص، عن طريق التحدي الذي تواجهه على ارض الواقع، بفضل الإمكانات الزاخرة التي تحملها في باطنها في بداية حياتها. هذه الفكرة لها اثر عميق في فلسفة ارنولد توينبي، إذ استلهم منها أسس نظريته (التحدي والاستجابة)[2]، إن اشبنغلر انطلق من فكرة هيغل القائلة بأن للحضارة روح، إلا انه لم يجعلها روحا واحدة، فهو يقسم التاريخ العالمي الى حضارات ولكل حضارة روحا أصيلة مستقلة بنفسها، تعبر عنها، وهي تختلف عن أرواح الحضارات الأخرى، إذ لكل منها صفة تخصها، فلا توجد حضارة عامة، بل لكل حضارة فلسفتها وتصوراتها.

إن فترة ربيع الحضارة تمثل مرحلة البطولة وما فيها من حياة الأساطير وشعر الملاحم، واتساع الخيال وامتلاك ديانة سحرية تعبر عن شعور جديد بالله والخوف من العالم وأساطير الأبطال الآريين في الحضارة الهندية والدين الهيليني بالنسبة للحضارة الكلاسيكية والكاثوليكية الألمانية بالنسبة للحضارة الغربية. فالدين يكتسي بعدا وأهمية كبرى في تفسير الحضارة، كما يرى اشبنجلر أن الحياة السياسية والاقتصادية مبنية على النظام الإقطاعي الزراعي، وهو في نظره نظام ليس حكرا على الغرب وحده، بل يشمل كل حضارة، فالمجتمع مبني على الثنائية الطبقية هما: طبقة الملاك الإقطاعيون، وطبقة الفلاحين، الأولى طبقة مستغلة، وتشمل النبلاء وكبار رجال الكنيسة الكهنة، والثانية مستغلة ومحرومة من كل الحقوق، ويكاد أصحابها عديمي القيمة، فتشكيلة نمط علاقات الإنتاج هي التي تجعل المجتمع طبقيا، خاضعا لحكم طبقة نشطة هي النبلاء، ذات طموح ورغبة قوية في السيطرة والتوسع على حساب الغير. و يجسد دور الارستقراطية في صنع الحضارة، فيقول: **"لقد أمسى قدر الحضارة رهين قبضة النبالة".**

2-مرحلة صيف الحضارة (الشباب): وهي المرحلة التي تعقب الإقطاع، والتي تعد المنعطف الذي تشهده كل حضارة، حيث الانحراف عن الجانب القيمي، نتيجة بداية نفوذ رجال الدين على السلطة، وادعائهم بالوساطة بين الله والإنسان، الأمر الذي يجعل كل حضارة تشهد ظاهرة دينية في سيرورتها الخاصة، هي ظاهرة الإصلاح الديني، ومعناه رجوع الدين الى طهارة فكرته الأولى وصفائها، وليس من الضروري أن تنتهي حركة الإصلاح الديني الى قيام أديان جديدة، حيث يقول: **"إن للإصلاح الديني المعنى ذاته في جميع الحضارات، ألا وهو العودة بالدين الى نقاء فكرته الأصلية وصفائها،**

---

(1) مورفولوجيا: عِلم دراسة الشكل والبُنية الخارجية للاشياء.
(2) نفصلها في المحاضرة القادمة.

ولا تخلو أية حضارة من الحضارات من مثل هذه الحركة"، في هذه المرحلة أيضا تظهر القيادات الوثابة الطموحة، انه عصر النهضة والفن والادب، كما يشهد سياسيا ظهور المدن والتنظيم السياسي، وهو في الوقت نفسه ثورة ضد الميثولوجيا، ويظهر فيه ذكاء نشط يدفع الدين الى الخلف، ويقدم شكلا علميا من الوعي. هذه المرحلة عموما يصل فيها التطور ذروته، حيث تنضج كل الإبداعات وتكتمل، كما يحدث ذلك تماما في فصل الصيف، حيث تنضج الثمار.

3- **مرحلة خريف الحضارة (الكهولة)**: وهي مرحلة النضج الكامل للينابيع الروحية الثقافية وبداية البوادر الأولى للشيخوخة والإرهاق فيها الملكيات المركزة وفيها الفلسفة تتحدى الدين، والقيم السائدة باسم التنوير، هي مرحلة سيادة العقل، وذكاء المدينة وذروة الإبداعية وظهور مختلف النشاطات العقلية وخاصة الفلسفية منها، عصر المدن، وازدهار التجارة وتوسع الدول، وتحدي الفلسفة للدين، وتمجيد العقل ومنحه السيادة الكاملة، إلا ان الرمزية العظمى تجف وتذوي وصخب من الأشكال فوق الإنسانية تموت وتفنى، فالحضارة في هذه المرحلة تستنفذ كل إمكاناتها، فتصبح عاجزة عن الإبداع والابتكار، ليشدها الحنين الى مراحلها الذهبية الأولى، (الربيع والصيف) لشعورها بالفناء، وهكذا تدخل الحضارة في طورها الأخير وهو طور الانحلال والذي يتمثل في مرحلة الشتاء.

4- مرحلة شتاء الحضارة (الشيخوخة): وتمثل آخر مرحلة من مراحل الحضارة، ففي الشتاء تفقد الحضارة روحها المبدعة وتصبح مجرد مدنية، وفي ظل هذه المرحلة زوال الحضارة، لأنها قد لفظت آخر أنفاسها، وقدمت كل ما لديها من إمكانات، فالمدنية علامة من علامات السقوط والموت، لذا فهي تمثل نهاية لمسار الحضارة إنها المصير المحتوم الذي لا بد لكل حضارة من بلوغه، ولا يمكن للإرادة الإنسانية الوقف أمام تحققها.إن المدنية هي المرحلة النهائية من عمر الحضارة، إذ تشهد انحلال أخلاق الناس، حيث تسود الروابط المادية النفعية، وتتحجر قلوبهم ويختفي صوت وجدانهم، وذلك لسيطرة الأساليب المادية و التقنية على الحياة الإنسانية، ولا يقيمون وزنا للجوانب الروحية، ولا معيار إلا لمعيار المادة، فإنسان المدنية إنسان نفعي، حيث يقول: " **والإنسان في المدنية يضع نصب عينيه إشباع الحس هدفا له، ويقوم كل عمل بمقومات حسية تصب كلها في الجيب والبطن وما يشتق منهما، فإن المدنية عاطلة عن العظمة الحقيقية عقيمة لا مجال فيها للبناء الأصيل"**، كما تشهد سيطرة الاتجاهات اللادينية، ولا مجال للكشف والإبداع، أي الاتجاه الى الفكر والفن الذي يحقق التقدم والازدهار، بل الاهتمام منصب حول الغزو والفتح والعناية بالشؤون الاقتصادية والمادية، يقول شبنغلر على هذه المرحلة: **"لا يسكن المدنية العالمية شعب موحد الأصل نبت في تربة أرضه، بل يقطنها نوع جديد من القبائل الرحالة، حيث تتلاحم جماهيرها المائعة غير المستقرة وتلتئم وهؤلاء السكان الطفيليون معدمو التقاليد، مغرقون في الواقعية لا يدينون، يكنون احتقارا لابن الريف...وهذا ما يشكل خطوة واسعة نحو اللاأساسي أي نحو النهاية"**، كما يرى أن المدنية تشهد غياب قيم النبلاء – الارستقراطيين-من شجاعة وشهامة وفروسية ووفاء لتحل محلها سيادة القيم المادية والاقتصادية والعلمية، والتي هي علامة من علامات الضعف الحضاري، فإذا ما غاب الارستقراطيون عن الفعل التاريخي، وقف التاريخ عن التطور والحركة، بل يكون في حالة جمود وموت وزوال.

إن المشكلة الرئيسية في طور المدنية هي مشكلة أخلاقية، حيث تكون في طور الحضارة أخلاقا نظرية، وفي طور المدنية تتحول الى أخلاق عملية قائمة أساسا على المنفعة والكسب، وإقصاء تام للجوانب الروحية، وهنا يتفق مع ابن خلدون، حينما اعتبر أن الحضارة آخر مراحل المدنية والرفاهية، بل هي بداية الانحدار، فالحضارة عند ابن خلدون هي معاناة انتشار الترف والنعيم ومظاهر البذخ، الذي تسقط في ظله الدولة، لأن هذا الوضع يؤدي إلى تفكك رابطة العصبية، فيكثر النفاق والشقاق وتسوء الأخلاق. ويعتقد شبنغلر أن دورة حياة الحضارة تستغرق نحو (ألف سنة).

رأى شبنغلر أن نشوء الحضارات وازدهارها وانحلالها مسألة قدرية، ولا يمكن فهم الحضارات الإنسانية إلا من خلال هذه القدرية، لأن ما يطرأ على الحضارات من تبدل وتقلب هو أمر حقيقي وحتمي لا مفر منه. ويرى أن الحضارة العربية تشمل جميع الحضارات التي قامت في الشرق الأوسط، من حدود الصين حتى شمال افريقيا.

وأن العالَم لَم يجد هويته الحقيقية، ولَم يكتشف وَحدته إلا من خلال الإسلام، وهنا يكمن النجاح الكبير الذي تحقق في هذه المنطقة من العالَم، حيث استطاع الإسلام أن يُحوّل هذه المنطقة الممزَّقة إلى وَحدة حضارية تربط بين جميع الثقافات والعادات والتقاليد والخصوصية العِرقية. ومن خلال الإسلام نشأت الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت ذروة نضجها وازدهارها إلى أن جاء «الصليبيون» ووضعوا الأحرف الأولى في مأساة انهيارها، فالعرب عند شبنغلر استطاعوا تأسيس وَحدة شاملة للشعوب، على شكل إمبراطورية، بلغت أسمى درجات الازدهار والتقدم. ورفض اوزوالد شبنغلر الفكرة الاوربية بان العالم يدور في فلك اوربا ، ولم يعترف بتفوق الغرب وحضارتهم .وهو لا يؤمن بان هناك (تقدم) بل ان كل جيل من البشر لا يقل حمقا عن الجيل الذي سبقه ، وان ليس ثمة هدف في العملية التاريخية وانما هناك عملية بايولوجية كالحياة نفسها.

أما المنهجية المناسبة لدراسة التاريخ، فأن شبنغلر لم يحاول الكتابة عن منهجيته الخاصة في دراسة التاريخ، إلا انه نظر الى الاحداث برؤية شعرية قريبة من الاحساس الفطري في فهم التاريخ، إلا انه التزم قاعدة دائمة في كتاباته مو الكتابة المورفولوجية، رأى ان المنهج العلمي هو المنهج المناسب لدراسة الطبيعة. ورفض ان يكون يشكل التاريخ الانساني خطا متصاعدا يبدأ بالتاريخ القديم فالوسيط والحديث؛ فتاريخ الانسانية يتكون من حضارات لكل حضارة لها تاريخها الخاص ومسارها المحدد والحضارات هي جوهر التاريخ الانساني وكل حضارة (وحدة) واحدة لا علاقة لها بالحضارات المماثلة، ولاحظ ان كل حضارة تنطلق من رمز اولي هو بمثابة المفتاح الحقيقي لفهم تاريخها.

ومن الملاحظات الموجهة ضد نظرية شبنغلر في فلسفة التاريخ هو انه لا يمكن تطبيق القوانين العضوية على الحضارات، والتي شبهها بالكائن العضوي، بل هي مجالات ثقافية على هيئة عناصر متعددة من الانظمة والتكتلات الاجتماعية والثقافية متجاورة او متباينة كلٌ حسب مقوماتها.

ان منظوره العضوي للحضارات قد حمله بعيدا في انكار عنصر التأثر والتأثير بين الحضارات، فضلا عن اسرافه في عنصر التمايز والاختلاف بين الحضارات، وذلك كله ينتهي تماما بالموت والفناء، وهي نظرة يصفها بعض المؤرخين بالتشاؤمية السوداوية بسبب ما عاشه شبنغلر خلال سنوات الحرب العالمية الاولى، ووصف البعض حالته بالاغتراب النفسي والاجتماعي.

المصادر المعتمدة في اعداد المحاضرة

1- أوزوالد اشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: احمد الشيباني، الجزء:1 و2.

2- احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ.

3-بروال جمال، نظرية الحضارة عند اسوالد اشبنجلر: مقاربة تحليلية في دورة الحضارة، مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد:54.